سطوة القات على اليمنيين

بقلم: محمد المصري ❖

■ إذا كنت من مرتشفي القهوة، فمن المحتمل أن تكون عارفا بأن أفضل أنواع القهوة في العالم يأتي من اليمن. فميناء المخاء كان المنفذ الأول للبضائع المتنوعة إلى أوروبا. والمخاء هي أيضا اسم لمدينة يمنية صغيرة تقع على البحر الأحمر، حوالي ١٠٠ كم من ميناء عدن الواقع على المحيط الهندي، الذي يمثل الآن المدينة الاقتصادية والتجارية لليمن. ميناء عدن العميق كان مشكلاً من نشاط بركاني قديم الأزل جعل من الحمم البركانية جبالا ضخمة تطوق الميناء.

باسترجاع الذاكرة إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ولج اليمنيون العالم بما كان يعرف بـ"القهوة العربية". في البداية نقلها البحارة الأوروبيون المارون عبر المدينة الساحلية الصغيرة، المخاء. حتى أن كلمة "قهوة" تخللت الكثير من اللغات، قبل أن يصل بها المطاف إلى اسم تشتهر به وهو "Coffee".

لكن اليوم لم يعد اليمنيون من أكثر الشعوب ارتشافا للقهوة، فبدلا عنها، أصبحوا يفضلون مضغ كمية كبيرة من وريقات منبهة تدعى "القات".

أول دخول للقات إلى اليمن كان في القرن الخامس عشر الميلادي عندما كان التجار الأفارقة يقدمون إلى اليمن عبر البحر الأحمر ويمكثون فيها كثيرا.

لمعرفة كيف يكون تأثير القات، دعونا نتخيل لاعبي البيسبول الأمريكيين وهم في الملعب ووجناتهم ممتلئة بتوماباك ليس مخصص للتدخين، يمضغه اللاعبون خلال فترات الراحة ليمتصوا العصارة المنبهة إلى الأوردة الدموية، فالكثير يدعي أنها تحسن من نشاطه.

بشكل مشابه، أكثر من ٨٠ بالمائة من البالغين في اليمن، رجالاً ونساءاً كباراً وصغاراً، يمضغون بشكل منتظم وريقات القات الخضراء. البعض يتعاطاها في المساء فقط والقليل يمضغها في نهاية الأسبوع أو أيام الأجازات، وهناك من يمضغ القات أطول فترة من اليوم حتى أثناء العمل.

الشيء الأغرب، أن هناك من اليمنيين من ينفقون على القات أكثر من إنفاقهم على الأكل، وتكلفة القات تتجاوز تكلفة التدخين بكثير.

في كتابه، "أكل أوراق الفردوس"، يصف الكاتب كيفن روشبي تجربته في مضغ القات قائلا: "في كل يوم نشتري حزمة من القات ونصعد الدرجات إلى غرفة مليئة بدخان البخور، ثم نغلق باب الغرفة أمام العالم الخارجي، ثم نشرع في مضغ أوراق القات وننتظر إلى أن يعمل القات مفعوله.

ليس تحولاً مفاجئاً، لكن نشعر بتغير حريري للمزاج، يمكن ملاحظته بصعوبة، ومن ثم ترخي الغرفة مرساتها فنكون مأسورين للحظات سرمدية. بعد سنتين، لم أعد أعرف ما سر متعة الحياة في اليمن أو بسبب اليمن نفسها أم بسبب القات".

واليوم هناك الكثير من السياح الذين يزورون اليمن يسمعون عن تأثير القات الفاتن ويتلهفون لمحاولة مضغه.

كانت شجرة القات مكتشفة بالمصادفة من قبل مزارعين إثيوبيين لاحظوا أن أغنامهم تصبح مرحة كثيرا بعدما تأكل وريقات إحدى الشجرات التي سميت لاحقا بالقات. وعملية مضغ القات تدعى تخزينة بالعربي، والتي تأتي من أنك تخزن وريقات القات في إحدى وجنتيك لفترة طويلة.

من أكثر التأثيرات السلبية لزراعة القات، أن حوالي ٨٠ بالمائة من المخزون المائي في اليمن يتم استنزافه لزراعة القات، مقارنة بنسبة المياه القليلة التي يتطلبها ري أشجار القهوة والمحاصيل الغذائية.

وعلى ما يبدو أن زراعة القات أخذت في التمدد والانتشار، لدخول زبائن جدد، الكثير من النساء والشباب، الذين يضافون يوميا إلى أعداد اللاهثين بعده. السبب في ذلك أن القات يعتبر منشطاً اجتماعياً حيث يخترق كل المستويات الاجتماعية مثلما يقوم به تدخين التومباك في أمريكا الشمالية حتى سنوات قريبة.

من ناحية الإدمان، فقد يسبب الإدمان به لكنه ليس بتأثير الكحول، ولذلك فالعلماء المسلمون منقسمون في كيفية التعامل معه. فالبعض يبيح مضغه وآخرون يحرمونه بسبب الجوانب السلبية التي تركها في متعاطيه.

المخزنون يدافعون عن القات لاعتقادهم أن أوراقه تعطيهم الكثير من الطاقة والنشاط. وكما يقولون أنه بدون القات لا يشعرون بنشاط وبذلك لن يكون هناك عمل ولا دراسة ولا زواج ولا شيء آخر.

المعارضون للقات يحذرون من آثاره السلبية على ذهن وجسم المخزن. لكن وقف استخدام القات في اليمن قد يأخذ سنوات أو ربما أجيالاً قادمة.

فاليمنيون أصبحوا أجمالا مدمنين عليه. قبل سنوات، كشف الرئيس اليمني علي عبدالله صالح بأنه يمضغ القات فقط في نهاية الأسبوع، ثم أعلن لاحقا أنه سيتوقف عن مضغه.. في عام ٢٠٠٢، تم الحظر على كل الموظفين الحكوميين من مضغ القات خلال أوقات الدوام الرسمي. لكن اليوم بعد خمس سنوات، فالملاحظ فقط أن القات زاد انتشاره أكثر من ذي قبل.

* بروفيسور في الهندسة الالكترونية في جامعة واترلو الأمريكية- رئيس المجلس الإسلامي الكندي

شباب مأرب: نحن لطفاء نحو الأجانب

■ صعد تركي سليم الشريف درجات عرش بلقيس بتراخٍ وهو مرتدٍ للزي التقليدي للقبائل اليمنية: ثوب أبيض وجاكيت غربي أسود وعلى كتفه شال فلسطيني وعلى خاصرته لف حزام الجنبية المزخرفة الرائعة. وما نقص في زيه إلا الكلاشينكوف، فقد تركه في غرفة الحقائب لأن الأوروبيين لا يحبون رؤية السلاح. الشاب الصغير هو مزارع من قبيلة الشرف «الاشراف» ويعيش في مأرب، منطقة فقيرة وهي بحاجة ملحة لتحسين الأوضاع الاقتصادية فيها عن طريق إيرادات السياحة. تلك المنطقة التي تغفو تحت اطلالها المُتربة بقايا المملكة السبئية التي قدمت منها ملكة سبأ المقدسة إلى القدس مع موكب كبير وجمال تحمل التوابل والذهب والأحجار الكريمة.

لكنها أيضًا مع الأسف هي نفس المنطقة التي لا يسمح اليوم للأجانب بزيارتها من دون مرافقة موكب عسكري مسلح.

■ مقابلة أجراها هيلمر بوجاناتس

■ واحة مأرب هي مكان المتناقضات الكبيرة: فهناك حيثما تمتد سلسلة جبلية مرتفعة إلى صحراء رملة السبعتين فيلتقي الماضي المليء بالأمجاد بالحاضر المظلم والمستقبل المُريب. تلتقي فيه قوانين الحكومة بالقوانين القديمة للقبيلة ويلتقي الأمل في السياحة المدرة للربح بالموجة الهدامة للاختطافات، التي وصلت إلى ٢٠٠ حالة اختطاف في الخمسة عشر عاماً الماضية.

وسط سياح ألمان يحكي بصورة خيالية عن ملكة سبأ، كان تركي سليم الشريف، ٣٠ عاماً، يقف على سلالم حضارة ملكة سبأ المرتفعة لمعبد بران القديم الذي تم تشييده منذ ٣٠٠٠ عاماً.

لكن كيف توصل تركي لذلك؟ إنه سؤال من الأفضل أن يتم توجيهه إلى مساعدي التنمية الألمان وعلماء الآثار، فهم من حمل تركي مع أحد عشر آخرين من أبناء بلدته قبل ثلاث سنوات للتجمع من أجل تشكيل جماعة "أبناء مأرب".

لقد تلقوا تدريبا على إرشاد السياح الأجانب. وبذلك تكون منظمة التنمية الألمانية (GTZ) قد تمكنت من تحقيق ما لم يتمكن أي وجاهات في مأرب من تحقيقه.

مع "أبناء مأرب" جلس لأول مرة رجال من أربع قبائل متنافسة على طاولة واحدة لطرح ما ينبغي فعله من أجل تحقيق النجاح للمنطقة الفقيرة: الإكرام بدلاً من الاختطافات والعمل التجاري بدلاً من الثأر.

تركي الشريف هو قائد جماعة "أبناء مأرب" وهو يدرك أكثر من غيره مدى أهمية فتح مأرب للعالم من جديد. لأنه في واحة مأرب التي كانت تتفرد في عهد المسيح عيسى (عليه السلام) بطريق البخور استغنى الرومان بخط سير السفن عن طريق القوافل القديم وبعد ذلك أتى البدو العرب في العام ٦٠٠ بعد الميلاد إلى المنطقة و أقل نجم حضارة السبئيين (حسب وجهة نظر الكاتب الذي نختلف معه).

منذ ذلك الحين و مأرب تشكل منطقة خطرة للأجانب، وذلك ما يرغب "أبناء مأرب" الآن في تغييره.

والفكرة هي أن من يمشي مع أبناء مأرب فهو آمن. و ذلك الانفتاح لا يجسده أحد أفضل من قائد "أبناء مأرب"، الذي تعرف على أول فوج من الأجانب في العام ١٩٩٨ في وادي حضرموت في محطة بنزين.

هناك توصل لأول مرة إلى فكرة أخذ الأجانب من جديد إلى منطقته، مأرب: وهي ذات المنطقة التي تقع فيها أهم مصادر النفط الموجود في اليمن.

لذلك وجد أن العمل بالسياحة أفضل بكثير من عائدات النفط. ولذلك يسعى تركي لتفعيل مصادر أخرى تدر المال على المنطقة.

فعندما قام مسلحون من قبيلة "أخرى" باختطاف خمسة سياح إيطاليين في العام ٢٠٠٦ قام بكتابة رسالة عاجلة للخاطفين. وبعد ذلك بوقت قصير كان ضمن بعثة قبيلته على أبواب قبيلة تلك القبيلة، للتوسط لإطلاق فتم إطلاق سراح الإيطاليين.

■ الصحيفة أجرت لقاء مع تركي سليم الشريف وطرحت عليه هذه الأسئلة:

● ما هو شعورك عندما توضح للأجانب الأماكن الأثرية السبئية؟

– حضارة أجدادي تملأني بالفخر الكبير. ولحسن الحظ قدم الألمان ليكشفوا لنا كل ذلك لأن حكومتنا لا تملك المال الكافي لتنفيذ أعمال الحفريات وإنشاء المتاحف.

● هل تكسبون شيئاً من وراء ذلك يمكنكم من العيش؟

– في الوقت الحالي لا شيء، لكن نأمل في المستقبل. كل مرشد سياحي يكسب حوالي ٨ يورو في اليوم الواحد وذلك ليس سيئاً.. في العاصمة صنعاء افتتحنا وكالة صغيرة خاصة بنا إضافة إلى التعامل مع مكاتب سياحية أخرى.

● ومن أين تصرفون في الأوقات التي لا عمل فيها؟

– عندي قطعة أرض زراعية وجمال ونبع. أزرع الخضار والحبوب. ولدينا منزل كبير في قرية السود وهناك أعيش مع عائلتي الكبيرة.

● لكن من المؤكد أن حياتكم قد تغيرت بفعل السياحة؟

– ليس فقط حياتي! فعن طريق علماء الآثار والألمان والسياح، الذين يأتون إلى هنا، يحصل أيضا كثير من أبناء المنطقة على وظائف جديدة كسائقي سيارات ومعاونين في فرق الآثار أو رجال أمن.

● من باب ذكرك للأمن. من وجهة نظرك، لماذا يغامر السياح بزيارة اليمن بالذات؟

– أولا، بسبب تاريخنا العريق. لكن بالطبع أيضا بسبب الناس. حتى وإن كنا نحمل السلاح إلا أن الحال لدينا ليس كما هو في أميركا، حيثما تجد كل واحد يطلق النار على من حوله. نحن اليمنيين متعاونون ونرحب بالزوار. وذلك ما يحدث أيضا بين أبناء القبائل أنفسهم: فعلى سبيل المثال إذا ما كان هناك فرد مطارد فهو يحظى بمساعدة أبناء القبائل. لقد سمعت أنه لا يوجد في ألمانيا قبائل ولذلك أرغب في طرح سؤال لك: من يحميكم بالضبط إذا ما حدث شيء ما؟

● حكومتنا أو بالأحرى الشرطة.

– تركي الشريف: يضحك و يقول: هكذا... لكننا هنا نفضل العمل على خلق التوازن بين القبائل.

● بالرغم من أنكم مدركون للتقاليد إلا أنكم ترغبون في العمل كدليل سياحي للأجانب ووكيل رحلات أكثر من الرغبة بالاعتناء بشؤون الزراعة في الحقل؟

– على كل حال، لقد تعلمت أشياء كثيرة. في السابق كنت أعتقد أن الأجانب أغبياء ولا يقدمون المساعدة والآن أصبحوا أصدقائي. وفي السابق كنت أنظر لأطلال مملكة سبأ على أنها كومه من الأنقاض واليوم صرت أستشيط غضباً إذا قام أحدهم بسرقة الأحجار الأثرية ليبني بها حظيرة. وفي السابق كنت أتحدث فقط العربية والآن أتعلم الإنجليزية.

● هل حققت أحلامك؟

– كلا فأنا أحلم بالسفر للخارج. وأرغب في رؤية ألمانيا.

■ عن مأرب- صحيفة «راينيشر ميركور» الألمانية

التميز في مساجد اليمن

أخذني سائقي اليمني الجنسية في رحلة على طريق طوله ٢٥٦ كم لمدة ست ساعات من العاصمة اليمنية صنعاء الى مدينة تعز جنوب البلاد. كانت الطريق متعرجة صعودا وهبوطا على جوانب الجبال, مما اتاح لي رؤية بعضا من أجمل المشاهد الطبيعة من أي مكان أخر في العالم.

كنت ألتقط صورا بكاميرتي طوال الطريق تقريبا, محاولا خزن أكبر قدر ممكن من الصور في ذاكرتي وفي ذاكرة الكاميرا, فاستحوذت على عدد وافر من الصور لعجائب اليمن الطبيعية ولشعبه الجميل.

من بين المشاهد الأكثر بروزا كان منظر الطلاب الصغار بزيهم المدرسي, بنين وبنات, وهم يصعدون ويهبطون في الإنحدارات الجبلية في رحلتهم اليومية التي تستغرق ساعتين بين البيت والمدرسة.

وبالرغم من هذه الرحلة الطويلة, إلا أنهم كانوا يتبادلون الأحاديث ويقهقهون. عندما اقتربوا من سيارتنا الجاثمة, رحبوا بي بكلمات إنجليزية قليلة, لكن بعد أن أكتشفوا أني أتحدث العربية, استرسلوا في حديث ودي معي. لم أجد عناء في حثهم بأن يقفوا لأخذ صور لهم, لكن البنات كن أكثر خجلا من الكاميرا.

وصلنا تعز في وقت العصر التي تقع في جنوب غرب مرتفعات اليمن وكانت في السابق عاصمة سياسية للبلاد.

تعز تتمتع بجمال طبيعي لا مثيل له بين المدن التي في حجمها (يبلغ عدد سكانها حوالي مليون نسمة).

أول من أسس مدينة تعز هو توران شاه, اخو صلاح الدين القائد الإسلامي المشهور, وذلك في عام ١١٧٣م. بعد ذلك أصبحت تعز مركزا للدولة الأيوبية ثم خلفها دولة الرسوليين (١٢٢٩-١٤٥٤), وبعدهم جاء الطاهريون الذين نقلوا العاصمة إلى صنعاء (١٤٥٤-١٥١٦).

لكن اليمنيين لم ينسوا تعز, ففي العهود الحديثة, حكم الأئمة اليمن من مدينة تعز من عام ١٩٤٨ وحتى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ عندما أسقطت الثورة اليمنية حكم الأئمة.

أفضل مكان يمكن رؤية مدينة تعز كلها من مرتفع تقع فيه قلعة القاهرة التي تم بناؤها في الجهة الشمالية لجبل صبر شديد الإنحدار.

يستغرق الوصول إلى قلعة القاهرة ٤٥ دقيقة سيرا على الأقدام، من هنا, تستطيع أن ترى قباب ومنارات مساجد تعز شامخة بين مساحات مفتوحة شبيهة بخضرة وادي منبسط ومنازل مصفوفة ببراعة.

الميزة التي تنفرد بها المساجد اليمنية- وأتمنى من العالم الإسلامي أتباع هذا النموذج- هي أن المساجد التابعة للسنة أو الزيود يتم ارتيادها بلا عوائق.

في عام ١٥٣٥ دخل العثمانيون اليمن. لكن الإمام القاسم , حكم خلال الفترة من ١٥٩٧ إلى ١٦٢٠قاتلهم. وفي عهد نجله, محمد, طُرد العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥ بعد قرن تقريبا من وصولهم.

في القرن السابع عشر, تم نقل عاصمة اليمن من مدينة صعده شمال البلاد- قرب الحدود السعودية- إلى صنعاء.

واصل الإمام يحيى (١٩٠٤-١٩٤٨) حرب دفاعية طويلة ضد العثمانيين وفي عهده حصلت اليمن على استقلالها عام ,١٩١٨ كما نجح أيضا في تهدئة الأوضاع في اليمن من خلال معاقبة القبائل المنشقة وأخذ أبناء القبائل كرهائن لديه.

و مع مرور الوقت, أدى تنامي المعارضة لحكم الإمام يحيى إلى تشكيل جماعة اليمنيين الأحرار, حركة وطنية تم إنشاؤها في المنفى. وفي عام ١٩٤٨ اغتال اليمينيون الأحرار الإمام يحيى, لكن نجله أحمد أطاح بالثورة وحكم اليمن من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٦٢. الذي سحق أيضا انتفاضة أخرى عام ,١٩٥٥ عقب وفاة الإمام احمد عام ١٩٦٢ والإطاحة بحكم الأئمة في اليمن, أعتلى السلطة مجموعة من الضباط في صنعاء وأعلنوا قيام الجمهورية العربية اليمنية.

لكن الملكيين احتشدوا حول البدر, نجل الإمام احمد, واندلعت حرب أهلية بين الجمهوريين, المدعومين من مصر, والملكيين. وفي عام ١٩٧٨م تم إنتخاب الرئيس الحالي علي عبد الله صالح رئيسا للدولة وفي عام ١٩٩٠ نجح الرئيس صالح في توحيد اليمن شماله مع جنوبه- المستعمرة البريطانية سابقا, التي أصبحت مستقلة عام ١٩٦٧) وسميت الجمهورية الوليدة بالجمهورية اليمنية. حقق صالح إصلاحات سياسية واقتصادية ويحظى بشعبية كبيرة جدا في أوساط اليمنيين لدوره في الدفاع عن وحدة بلادهم وتحقيقه السلام والاستقرار مع دول الجوار.

■ عن- موقع ميديا مونيتورز

حقوق الترجمة محفوظة لـ«الميثاق»